

مكتبة مشكاة الإسلامية

زاد المسير في علم التفسير

ابن الجوزي

سورة محمد

صلى الله عليه وسلم

وفيها قولان:

أحدهما: أنها مدنية، قاله الأكثرون، منهم مجاهد، ومقاتل، وحكي عن ابن عباس وقتادة أنها مدنية، إلا آية منها نزلت عليه بعد حجة حين خرج من مكة وجعل ينظر إلى البيت، وهي قوله: { وَكَأَيِّنْ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَتِكَ } [محمد/ 13].

والثاني: أنها مكية، قاله الضحاك، والسدي.

بسم الله الرحمن الرحيم

{ لِّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ أَصْلًا أَعْمَلَهُمْ * وَ لِّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ * ذَلِكَ بَانَ لِّذِينَ كَفَرُوا تَبِعُوا لِبَطْلِ وَأَنَّ لِّذِينَ ءَامَنُوا تَبِعُوا لِحَقٍّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ * فَإِذَا لَقِيتُمْ لِّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا لُوثَاقَ فَإِمَّا مِمَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ لِحَرْبِ أَوْ رَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَيْتَر مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُو بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَ لِّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُضِلُّ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمْ لِحَنَّةٍ عَرَفَهَا لَهُمْ }

قوله تعالى: { لِّذِينَ كَفَرُوا } أي: بتوحيد الله { وَصَدُّوا } الناس عن الإيمان به وهم مشركو قريش { أَصْلًا أَعْمَلَهُمْ } أي: أبطلها، ولم يجعل لها ثوابا، فكانها لم تكن وقد كانوا يطعمون الطعام، ويصلون الأرحام، ويتصدقون، ويفعلون ما يعتقدونه قربة.

{ وَ لِّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } يعني: أصحاب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

{ وَءَامَنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ } وقرأ ابن مسعود { نَزَلَ } بفتح النون والزاي وتشديدها. وقرأ أبي بن كعب، ومعاذ القاريء: { أَنْزَلَ } بهمزة مضمومة مكسورة الزاي. وقرأ أبو رزين، وأبو الجوزاء، وأبو عمران: { نَزَلَ } بفتح النون والزاي وتخفيفها { كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ } أي: غفرها لهم { وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ } أي: حالهم، قاله قتادة، والمبرد.

قوله تعالى: { ذَلِكَ } قال الزجاج: معناه: الأمر ذلك، وجائز أن يكون: ذلك الإضلال، لاتباعهم الباطل، وتلك الهداية والكفارات باتباع المؤمنين الحق، { كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ } أي: كذلك يبين أمثلا حسنة المؤمنين وسيئات الكافرين كهذا البيان.

قوله تعالى: { فَضَرْبِ الرِّقَابِ } إغراء، والمعنى: فاقتلوهم لأن الأغلب في موضع القتل ضرب العنق { حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ } أي: أكثرتم فيهم القتل { فَشُدُّوا لُوثَاقَ } يعني في الأسر، وإنما يكون الأسر بعد المبالغة في القتل. والوثاق اسم من الإيثاق تقول: أوثقته إيثاقا ووثاقا إذا شددت أسره لئلا يفلت { فَإِمَّا مِمَّا بَعْدُ } قال أبو عبدة: إما

أن تمنوا وإما أن تفادوا، ومثله سقيا ورعيا وإنما هو سقيت ورعيت. وقال الزجاج: إما منتم عليهم بعد أن تأسروهم منا وإما أطلقتموهم بفداء. فصل

وهذه الآية محكمة عند عامة العلماء. وممن ذهب إلى أن حكم المن والفداء باق لم ينسخ: ابن عمر، ومجاهد، والحسن، وابن سيرين، وأحمد، والشافعي. وذهب قوم إلى نسخ المن والفداء بقوله: { فَ قَتَلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ } وممن ذهب إلى هذا ابن جريج والسدي وأبو حنيفة. وقد أشرنا إلى القولين في [براءة/ 5].

قوله تعالى: { حَتَّى تَضَعَ لِحَرْبِ أَوْزَارِهَا } قال ابن عباس: حتى لا يبقى أحد من المشركين. وقال مجاهد: حتى لا يكون دين إلا دين الإسلام. وقال سعيد بن جبير: حتى يخرج المسيح. وقال الفراء: حتى لا يبقى إلا مسلم أو مسالم. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: حتى يضع أهل الحرب سلاحهم، قال الأعشى: وأعددت للحرب أوزارها رماحا طوالا وخيلا ذكورا

وأصل الوزر ما حملته، فسمي السلاح أوزارا لأنه يحمل، هذا قول ابن قتيبة.

والثاني: حتى تضع حربكم وقتالكم أوزار المشركين وقبائح أعمالهم بأن يسلموا ولا يعبدوا إلا الله، ذكره الواحدي.

قوله تعالى: { ذَلِكَ } أي: الأمر ذلك الذي ذكرنا { وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأُنْتَصِرَ مِنْهُمْ } بإهلاكهم أو تغديتهم بما شاء { وَلَكِنْ } أمركم بالحرب { لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بَعْضًا } فيثيب المؤمن ويكرمه بالشهادة ويخزي الكافر بالقتل والعذاب.

قوله تعالى: { وَ الَّذِينَ قُتِلُوا } قرأ أبو عمرو، وحفص عن عاصم: { قَتِلُوا } بضم القاف وكسر التاء. والباقون: { قَاتِلُوا } بالف. قوله تعالى: { سَيَهْدِيهِمْ } فيه أربعة أقوال: أحدها: يهديهم إلى أرشد الأمور، قاله ابن عباس.

والثاني: يحقق لهم الهداية، قاله الحسن.

والثالث: إلى محاجة منكر ونكير.

والرابع: إلى طريق الجنة، حكاهما الماوردي.

وفي قوله:

{ عَرَفَهَا لَهُمْ } قولان:

أحدهما: عرفهم منازلهم فيها فلا يستدلون عليها ولا يخطئون بها. هذا قول الجمهور منهم مجاهد وقتادة، واختاره الفراء وأبو عبيدة.

والثاني: طيبها لهم، رواه عطاء عن ابن عباس. قال ابن قتيبة: وهو قول أصحاب اللغة يقال: طعام معرف، أي: مطيب.

وقرأ أبو مجلز، وأبو رجاء وابن مجيص: { عَرَفَهَا لَهُمْ } بتخفيف الراء.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ * وَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَصْلٌ أَعْمَلُهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَخْبَطَ أَعْمَلُهُمْ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْتَلُهَا * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ لِكُفْرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ * إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّلَاحَاتِ حَتَّى تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا لِأَنْهَرُ وَ لَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ
كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ * وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ
قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَصِرَ لَهُمْ * أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ
كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَ اتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ {

قوله تعالى: { إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ } أي: تنصروا دينه ورسوله { يَنْصُرْكُمْ }
على عدوكم { وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ } عند القتال. يورى المفضل عن عاصم:
{ وَيُثَبِّتْ } بالتخفيف { وَ لَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ } قال الفراء: المعنى:
فاتعسهم الله، والدعاء قد يجري مجرى الأمر والنهي. قال ابن قتيبة: هو
من قولك: تعست، أي: عثرت وسقطت. وقال الزجاج: التعس في اللغة
الانحطاط والعتور. وما بعد هذا قد سبق بيانه [الكهف/ 105] [يوسف/
109] إلى قوله: { دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ } أي: أهلكم الله { وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا }
أي: أمثال تلك العاقبة.

{ ذَلِكَ } الذي فعله بالمؤمنين من النصر، وبالكافرين من الدمار { يَا أَيُّهَا
مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا } أي: وليهم. وما بعد هذا ظاهر إلى قوله: { وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ }
تأكل وتشرب ولا تدري ما في غد فذلك الكفار لا يلتفتون إلى الآخرة.
والمثوى المنزل.

{ وَكَأَيِّنْ } مشروح في [آل عمران/ 146] والمراد بقريته مكة. وأضاف
القوة والإخراج إليها والمراد أهلها ولذلك قال { أَهْلَكْنَاهُمْ }.
قوله تعالى: { أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ } فيه قولان.
أحدهما: أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، قاله أبو العالية.

والثاني: أنه المؤمن، قاله الحسن.

وفي { لَبَيْتُهُ } قولان.

أحدهما: القرآن، قاله ابن زيد.

والثاني: الدين، قاله ابن السائب.

{ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ } يعني عبادة الأوثان، وهو الكافر { وَ اتَّبِعُوا
أَهْوَاءَهُمْ } بعبادتها.

{ مَثَلُ لَجْنَةٍ لَّتِي وَعِدَ لِمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ
لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى
وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ
وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ }

{ مَثَلُ لَجْنَةٍ لَّتِي وَعِدَ لِمُتَّقُونَ } أي: صفتها وقد شرحناه في [الرعد/
35]

والمتقون عند المفسرين: الذين يتقون الشرك، والآسن المتغير
الريح. قاله أبو عبيدة، والزجاج. وقال ابن قتيبة: هو المتغير الريح والطعم
والآسن نحوه. وقرأ ابن كثير { غَيْرِ آسِنٍ } بغير مد وقد شرحنا قوله:
{ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ } في [الصافات/ 46].

قوله تعالى: { مَنْ عَسَلٍ مُصَفًّى } أي: من عسل ليس فيه عكر ولا كدر
كعسل أهل الدنيا.

قوله تعالى: { كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ } قال الفراء: أراد من كان في هذا
النعيم كمن هو خالد في النار.

قوله تعالى: { مَاءً حَمِيمًا } أي: حارا شديدا الحرارة. والأمعاء جميع ما في
البطن من الحوايا.

**{ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا لِعِلْمٍ
مَّاذَا قَالَ ءَايَاتُكَ لَذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ *
وَالَّذِينَ هُتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ * فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن
تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ }**
قوله تعالى: { وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ } يعني المنافقين. وفيما يستمعون
قولان.

أحدهما: أنه سماع خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة.
والثاني: سماع قوله على عموم الأوقات. فأما { لَذِينَ أُوتُوا لِعِلْمٍ }،
فالمراد بهم، علماء الصحابة.

قوله تعالى: { مَّاذَا قَالَ ءَايَاتُكَ } قال الزجاج: أي: ماذا قال الساعة، وهو
من قولك: استأنفت الشيء: إذا ابتدأته، وروضة أنف: لمن ترع، أي: لها
أول يرعى؛ فالمعنى: ماذا قال في أول وقت يقرب منا. وحدثنا عن أبي
عمر غلام ثعلب أنه قال: معنى أنفا مذ ساعة. وقرأ ابن كثير، في بعض
الروايات عنه: { ءَايَاتُكَ } بالقصر وهذه قراءة عكرمة وحميد وابن محيصن.
قال أبو علي: يجوز أن يكون ابن كثير توهم مثل حاذر وحذر وفاكه وفكه
وفي استفهامهم قولان.

أحدهما: لأنهم لم يعقلوا ما يقول ويدل عليه باقي الآية.
والثاني: أنهم قالوه استهزاء.

قوله تعالى: { وَ لَذِينَ هُتَدُوا } فيهم قولان.
أحدهما: أنهم المسلمون، قاله الجمهور.

والثاني: قوم من أهل الكتاب كانوا على الإيمان بأنبيائهم وبمحمد صلى
الله عليه وسلم، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم آمنوا به، قاله
عكرمة.

وفي الذي زادهم ثلاثة أقوال.

أحدها: أنه الله عز وجل.

والثاني: قول الرسول.

والثالث: استهزاء المنافقين زاد المؤمنين هدى ذكرهن الزجاج. وفي
معنى الهدى قولان.

أحدهما: أنه العلم.

والثاني: البصيرة.

وفي قوله: { وَ لَذِينَ هُتَدُوا } ثلاثة أقوال.

أحدها: ثواب تقواهم في الآخرة، قاله السدي.

والثاني: اتقاء المنسوخ والعمل بالناسخ، قاله عطية.

والثالث: أعطاهم التقوى مع الهدى فاتقوا معصيته خوفا من عقوبته،
قاله أبو سليمان الدمشقي.

{ يُنظُرُونَ } بمعنى ينتظرون { أَن تَأْتِيَهُمْ } وقرأ أبي بن كعب، وأبو

الأشهب، وحميد: { ءَان * تَأْتِيَهُمْ } بكسر الهمزة من غير ياء بعد التاء.

والأشراط: العلامات. قال أبو عبيدة: الأشراط: الأعلام. وإنما سمي

الشرط فيما ترى لأنهم أعلموا أنفسهم. قال المفسرون: ظهور النبي

صلى الله عليه وسلم من أشراط الساعة، وانشقاق القمر والدخان وغير

ذلك.

{ فَأَتَى لَهُمْ } أي: فمن أين لهم { إِذَا جَاءَتْهُمْ } الساعة { ذَكَرَاهُمْ } قال قتادة: أتى لهم أن يذكروا ويتوبوا إذا جاءت. { وَ عَلَّمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَ سَتَّعَفِرُ لِدَنبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لِمُؤْمِنَاتِ وَ اللَّهِ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ وَ مَثْوَاكُمْ * وَيَقُولُ لِدِينٍ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذَكَرَ فِيهَا لِقَتَالٍ رَأَيْتَ لِدِينٍ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَطَرَّ لِمَعْشَى عَلَيْهِ مَن لَمُوتٍ فَأُولَى لَهُمْ * طَاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا لِ اللَّهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ } قوله تعالى: { وَ عَلَّمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ * إِلَّا اللَّهُ } قال بعضهم: اثبت على علمك. وقال قوم: المراد بهذا الخطاب غيره. وقد شرحنا هذا في فاتحة [الأحزاب] وقيل: إنه كان يضيق صدره بما يقولون، فقيل له: اعلم أنه لا كاشف لما بك إلا الله.

فأما قوله: { وَ سَتَّعَفِرُ لِدَنبِكَ } فإنه كان يستغفر في اليوم مائة مرة وأمر أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات إكراما لهم لأنه شفيح مجاب. { وَ لِلَّهِ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ وَ مَثْوَاكُمْ } فيه ثلاثة أقوال: أحدها: متقلبكم في الدنيا ومثواكم في الآخرة، وهو معنى قول ابن عباس.

والثاني: متقلبكم في أصلاب الرجال إلى أرحام النساء ومقامكم في القبور، قاله عكرمة.

والثالث: متقلبكم بالنهار ومثواكم أي: مأواكم بالليل، قاله مقاتل. قوله تعالى: { وَيَقُولُ لِدِينٍ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ } قال المفسرون: سألوهم أن ينزل سورة فيها ثواب القتال في سبيل الله، اشتياقا منهم إلى الوحي وحرصا على الجهاد فقالوا { لَوْلَا } أي: هلا. وكان أبو مالك الأشجعي يقول: لا هاهنا صلة فالمعنى: لو أنزلت سورة شوقا منهم إلى الزيادة في العلم ورغبة في الثواب والأجر بالاستكثار من الفرائض. وفي معنى { مُحْكَمَةٌ } ثلاثة أقوال.

أحدها: أنها التي يذكر فيها القتال، قاله قتادة.

والثاني: أنها التي يذكر فيها الحلال والحرام.

والثالث: التي لا منسوخ فيها، حكاهما أبو سليمان الدمشقي. ومعنى قوله: { وَذَكَرَ فِيهَا لِقَتَالٍ } أي: فرض فيها الجهاد.

وفي المراد بالمرض قولان.

أحدهما: النفاق، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، والجمهور.

والثاني: الشك، قاله مقاتل.

قوله تعالى: { يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ } أي: يشخصون نحوك بأبصارهم ينظرون نظرا شديدا كما ينظر الشاخص ببصره عند الموت، لأنهم يكرهون القتال، ويخافون إن قعدوا أن يتبين نفاقهم.

{ فَأُولَى لَهُمْ } قال الأصمعي: معنى قولهم في التهديد: أولى لك أي: وليك وقاربك ما تكره. وقال ابن قتيبة: هذا وعيد وتهديد تقول للرجل إذا أردت به سوءا ففاتك: أولى لك ثم ابتداء فقال { طَاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ }

وقال سيبويه، والخليل: المعنى طاعة وقول معروف أمثل. وقال الفراء: الطاعة معروفة في كلام العرب إذا قيل لهم افعلوا كذلك قالوا سمع وطاعة. فوصف الله قولهم قبل أن تنزل السورة أنهم يقولون: سمع وطاعة، فإذا نزل الأمر كرهوا. وأخبرني حبان عن الكلبي عن أبي صالح

عن ابن عباس قال: قال الله تعالى: { فَأُولَىٰ } ثم قال: { لَهُمْ } أي: للذين آمنوا منهم { طَاعَةٌ } فصارت أولى وعيدا لمن كرهها، واستأنف الطاعة ب { لَهُمْ }؛ والأول عندنا كلام العرب، وهذا غير مردود يعني حديث أبي صالح. وذكر بعض المفسرين أن الكلام متصل بما قبله والمعنى: فأولى لهم أن يطيعوا وأن يقولوا معروفا بالإجابة.

قوله تعالى: { فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ } قال الحسن: جد الأمر. وقال غيره: جد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الجهاد، ولزم فرض القتال وصار الأمر معروفا عليه. وجواب إذا محذوف تقديره: فإذا عزم الأمر نكلوا يدل على المحذوف { قَلَوْ صَدَقُوا } أي: في إيمانهم وجهادهم { لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ } من المعصية والكرهية.

{ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ لَدَيْنَ لَعْنَتِهِمْ مِنَ اللَّهِ فَأَصْمَمَهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ * أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ لِقُرْآنٍ آتَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِ أَفْقَالِهِمْ * إِنَّ لَدَيْنَ رَبِّدُوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ لِهَدَىٰ الشَّيْطَانِ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ * فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتَهُمْ لِمَلَائِكَتِهِ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ تَبِعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ }

قوله تعالى: { فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ } في المخاطب بهذا أربعة أقوال. أحدها: المنافقون وهو الظاهر.

والثاني: منافقو اليهود، قاله مقاتل.

والثالث: الخوارج، قاله بكر بن عبد الله المزني.

والرابع: قريش، حكاه جماعة منهم الماوردي.

وفي قوله: { توليتم قولان:

أحدهما: أنه بمعنى الإعراض فالمعنى: إن أعرضتم عن الإسلام { أن تفسدوا في الأرض } بأن تعودوا إلى الجاهلية يقتل بعضكم بعضا، ويغير بعضكم على بعض، ذكره جماعة من المفسرين.

والثاني: أنه من الولاية لأمر الناس، قاله القرطبي. فعلى هذا يكون معنى { أن تفسدوا } في الأرض بالجور والظلم.

وقرأ يعقوب: { وَتُقَطِّعُوا } بفتح التاء والطاء وتخفيفها وسكون القاف.

ثم ذم من يريد ذلك بالآية التي بعد هذه وما بعد هذا قد سبق [النساء/82]

إلى قوله: { أَمْ عَلَىٰ قُلُوبِ أَفْقَالِهِمْ } أم بمعنى بل وذكر الأفعال استعارة. والمراد أن القلب يكون كالبیت المقفل لا يصل إليه الهدى. قال مجاهد:

الران أيسر من الطبع والطبع أيسر من الإفعال والاقفال أشد ذلك كله.

وقال خالد بن معدان: مامن آدمي إلا وله أربع أعين عينان في رأسه لدنياه وما يصلحه من معيشتته، وعينان في قلبه لدينه وما وعد الله من الغيب فإذا

أراد الله بعبد خيرا أبصرت عيناه اللتان في قلبه، وإذا أراد به غير ذلك طمس عليهما. فذلك قوله: { أَمْ عَلَىٰ قُلُوبِ أَفْقَالِهِمْ }.

قوله تعالى: { إِنَّ لَدَيْنَ رَبِّدُوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ } أي: رجعوا كفارا. وفيهم قولان.

أحدهما: أنهم المنافقون، قاله ابن عباس، والسدي، وابن زيد.

والثاني: أنهم اليهود، قاله قتادة، ومقاتل. { مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ لِهَدَىٰ } أي: من بعد ما وضع لهم الحق. ومن قال هم اليهود قال: من بعد أن تبين

لهم وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم ونعته في كتابهم و {سَوَّلَ} بمعنى زين {وَأَمَلَى لَهُمْ} قرأ أبو عمرو، وزيد عن يعقوب: {وَأَمَلَى لَهُمْ} بضم الهمزة وكسر اللام وبعدها ياء مفتوحة. وقرأ يعقوب إلا زيدا وأبان عن عاصم كذلك إلا أنهما أسكنا الياء. وقرأ الباقر بفتح الهمزة واللام. وقد سبق معنى الإملاء [آل عمران/ 178] [الأعراف/ 183].

قوله تعالى: {ذَلِكَ} قال الزجاج: المعنى: الأمر ذلك، أي: ذلك الإضلال بقولهم {لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ} وفي الكارهيين قولان. أحدهما: أنهم المنافقون فعلى هذا في معنى قوله: {سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ} ثلاثة أقوال.

أحدها: في القعود عن نصره محمد صلى الله عليه وسلم، قاله السدي. والثاني: في الميل إليكم والمظاهرة على محمد صلى الله عليه وسلم. والثالث: في الارتداد بعد الإيمان، حكاهما الماوردي.

والثاني: أنهم اليهود فعلى هذا في الذي أطاعوهم فيه قولان. أحدهما: في أن لا يصدقوا شيئاً من مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قاله الضحاك.

والثاني: في كتم ما علموه من نبوته، قاله ابن جريج. {وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ} قرأ حمزة، والكسائي، وخلف، وحفص عن عاصم، والوليد عن يعقوب: بكسر الألف على أنه مصدر أسررت. وقرأ الباقر: بفتحها على أنه جمع سر والمعنى: أنه يعلم ما بين اليهود والمنافقين من السر.

قوله تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتُهُمْ لَمَلَكُهُ} أي: فكيف يكون حالهم حينئذ. وقد بينا في [الأنفال/ 50] معنى قوله: {يَصْرَبُونَ * وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ}. قوله تعالى: {وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ} أي: كرهوا ما فيه الرضوان، وهو الإيمان والطاعة.

{أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْعَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلاَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ لِقَوْلٍ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ * وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ لِمَجْهَدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْهُدَى لَنْ يَصُرُوا لِلَّهِ شَيْئاً وَسَيُحِبُّوا أَعْمَالَهُمْ * يَأْتِيهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ}

قوله تعالى: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ} أي: نفاق {أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْعَانَهُمْ} قال الفراء: أي: لن يبدي الله عداوتهم وبغضهم لمحمد صلى الله عليه وسلم. وقال الزجاج: أي: لن يبدي عداوتهم لرسوله صلى الله عليه وسلم ويظهره على نفاقهم.

{وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ} أي: لعرفناكم تقول: قد أريتك هذا الأمر أي قد عرفتك إياه المعنى: لو نشاء لجعلنا على المنافقين علامة وهي السيماء {فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ} أي: بتلك العلامة {وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ لِقَوْلٍ} أي: في فحوى القول. فدل بهذا على أن قول القائل وفعله يدل على نيته. وقول الناس قد لحن فلان. تأويله قد أخذ في ناحية عن الصواب وعدل عن الصواب إليها، وقول الشاعر:

منطق صائب وتلحن أحياناً وخير الحديث ما كان لحناً

تأويله: خير الحديث من مثل هذه ما كان لا يعرفه كل أحد إنما يعرف قولها في أنحاء قولها. قال المفسرون: ولتعرفنهم في فحوى الكلام ومعناه ومقصده فإنهم يتعرضون بتهجين أمرك والاستهزاء بالمسلمين. قال ابن جرير: ثم عرفه الله إياهم.

قوله تعالى: {وَلَتَبْلُؤَنَّكُمْ} أي: ولنعاملنكم معاملة المختبر بأن نأمركم بالجهاد {حَتَّى تَعْلَمَ} العلم الذي هو علم وجود، وبه يقع الجزاء؛ وقد شرحنا هذا في [العنكبوت / 3].

قوله تعالى: {وَتَبْلُواْ أَخْبَرَكُمْ} أي: نظهرها ونكشفها بإبائه من أبى القتال ولا يصبر على الجهاد. وقرأ أبو بكر عن عاصم: و{لَيَبْلُؤَنَّكُمْ} بالياء حتى يعلم بالياء {ويبلوا} بالياء فيهن. وقرأ معاذ القاريء، وأيوب السخيتاني: {أخياركم} بالياء جمع خير.

قوله تعالى: {سَعِيرًا إِنَّ لِدِينَ كَقَرُوا} الآية اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال.

أحدها: أنها في المطعمين يوم بدر، قاله ابن عباس.

والثاني: أنها نزلت في الحارث بن سويد ووجوه الأنصاري أسلما ثم ارتدا، فتاب الحارث ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى صاحبه أن يرجع حتى مات، قاله السدي.

والثالث: أنها في اليهود، قاله مقاتل.

والرابع: أنها في قريظة والنضير، ذكره الواحدي.

قوله تعالى: {وَلَا تُبْطِلُواْ أَعْمَالَكُمْ} اختلفوا في مبطلها على أربعة أقوال.

أحدها: المعاصي والكبائر، قاله الحسن.

والثاني: الشك والنفاق، قاله عطاء.

والثالث: الرياء والسمعة، قاله ابن السائب.

والرابع: باليمن وذلك أن قوما من الأعراب قدموا على رسول الله صلى

الله عليه وسلم فقالوا: أتيناك طائعين فلنا عليك حق فنزلت هذه الآية.

ونزل قوله {يَمْتُونُ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا} [الحجرات / 17] هذا قول مقاتل.

قال القاضي أبو يعلى: وهذا يدل على أن كل من دخل في قرينة لم يجز له

الخروج منها قبل إتمامها. وهذا على ظاهره في الحج فأما في الصلاة

والصيام فهو على سبيل الاستحباب.

{فَلَا تَهْتُواْ وَتَدْعُواْ إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ لِأَعْلُونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَبْرِكُمْ أَعْمَالَكُمْ * إِنَّمَا لِحَيَوَةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَإِنْ بُؤِمْنُواْ وَتَتَّبِعُواْ يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ * وَإِنْ سَأَلْتُمُوهَا فَيُخْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْعَانَكُمْ * هَآ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعُونَ لِتُنْفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ لَغَنِيٌّ وَأَنْتُمْ لِفُقَرَاءِ وَإِنْ تَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُواْ أَمْثَلَكُمْ}

قوله تعالى: {فَلَا تَهْتُوا} أي: فلا تضعفوا {وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ} قرأ ابن

كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي، وحفص عن عاصم: {إِلَى

السَّلَامِ} بفتح السين. وقرأ حمزة، وأبو بكر عن عاصم: بكسر السين

والمعنى: لا تدعوا الكفار إلى الصلح ابتداء. وفي هذا دلالة على أنه لا

يجوز طلب الصلح من المشركين. و دلالة على أن النبي صلى الله عليه

وسلم لم يدخل مكة صلحا لأنه نهاه عن الصلح.

قوله تعالى: { وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ } أي: أنتم أعز منهم والحجة لكم وآخر الأمر لكم وإن غلبوكم في بعض الأوقات { وَاللَّهُ مَعَكُمْ } بالعون والنصرة { وَلَنْ يَتْرَكَكُمْ } قال ابن قتيبة: أي: لن ينقصكم ولن يظلمكم يقال وترتني حقي أي بخستني. قال المفسرون: المعنى لن ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئاً.

قوله تعالى: { وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ } أي: لن يسألكموها كلها.
قوله تعالى: { فَيُخْفِكُمْ } قال الفراء: يجهدكم. وقال ابن قتيبة: يلج عليكم بما يوجهه في أموالكم { تَبَخَّلُوا } يقال: أحفاني بالمسألة وأحف إذا ألح. وقال السدي: إن يسألكم جميع ما في أيديكم تبخلوا.
{ وَيُخْرِجُ أَضْعَانَكُمْ } وقرأ سعد بن أبي وقاص، وابن عباس، وابن عمر: { وَيُخْرِجُ } بياء مرفوعة وفتح الراء { أَضْعَانَكُمْ } بالرفع، وقرأ أبي بن كعب، وأبو رزبن، وعكرمة، وابن السميع، وابن محيصن، والجدري: { وَتُخْرِجُ } بياء مفتوحة ورفع الراء { أَضْعَانَكُمْ } بالرفع. وقرأ ابن مسعود، والوليد عن يعقوب: { وَتُخْرِجُ } بنون مرفوعة وكسر الراء { أَضْعَانَكُمْ } بنصب النون أي يظهر بغضكم وعداوتكم لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ولكنه فرض عليكم يسيراً.
وفيمن يضاف إليه هذا الإخراج وجهان:
أحدهما: إلى الله عز وجل.

والثاني: البخل، حكاها الفراء. وقد زعم قوم أن هذه الآية منسوخة بآية الزكاة وليس بصحيح لأننا قد بينا أن معنى الآية إن يسألكم جميع أموالكم والزكاة لا تنافي ذلك.

قوله تعالى: { أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } يعني ما فرض عليكم في أموالكم { فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْخُلُ } بما فرض عليه من الزكاة { وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ } أي: على نفسه بما ينفعها في الآخرة { وَاللَّهُ لَغَنِيٌّ } عنكم وعن أموالكم { وَأَنْتُمْ لِفُقَرَاءِ } إليه إلى ما عنده من الخير والرحمة { وَإِنْ تَوَلَّوْا } عن طاعته { يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ } أطوع له منكم { ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ } بل خيراً منكم. وفي هؤلاء القوم ثمانية أقوال:

أحدها: أنهم العجم، قاله الحسن، وفيه حديث يرويه أبو هريرة قال: لما نزلت { وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ } كان سلمان إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله من هؤلاء الذين إذا تولينا استبدلوا بنا؟ فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على منكب سلمان فقال: هذا وقومه والذي نفسي بيده لو أن الدين معلق بالثريا لتناوله رجال من فارس.

والثاني: فارس والروم، قاله عكرمة.

والثالث: من يشاء من جميع الناس، قاله مجاهد.

والرابع: يأتي بخلق جديد غيركم. وهو معنى قول قتادة.

والخامس: كندة والنخع، قاله ابن السائب.

والسادس: أهل اليمن، قاله راشد بن سعد وعبد الرحمن بن جبير وشريح ابن عبيد.

والسابع: الأنصار، قاله مقاتل.

والثامن: أنهم الملائكة حكاة الزجاج وقال: فيه بعد لأنه لا يقال للملائكة قوم إنما يقال ذلك للآدميين، قال: وقد قيل: إن تولى أهل مكة استبدل الله بهم أهل المدينة. وهذا معنى ما ذكرنا عن مقاتل.